رسائل النور ظلال

تورف فوق مجتمع متعدد الثقافات

إيمان علي لاغا(*)

ريشة في القلب

عندما تشتد المحن وتحتدم الأزمات،
عندما ينشر الخراب أذرعه ويعم الظلام أرجاء المعمورة
عندما ينسد الأفق وتحجب غيوم كالحة ضوء الشمس
عندما يشعر الإنسان أن ما حوله برد دامس ويعتصر قلبه حزن مزمن
عندها لا يبقى للإنسان من ملجأ إلا بارئه، ولا من نور يضيء طريقه إلا هدي خالقه

عندها، من صميم الفؤاد... تنبثق إشعاعات الإيمان لتغمر العالم بالدفء المفقود

عندها، وعندها فقط تورف فوق الرؤوس ظلال النور تغمر بالشفقة والتسامح والإخاء، قلب كل إنسان تائه ليمسك بيد أخيه الإنسان شريكه في عمارة هذا الكوكب، دون ما اعتبار لا للون ولا لعرق ولا للغة، قاسم مشترك واحد يجمع بينهما : الإنسانية .

إنسانية تفقد كل معالمها وخصوصياتها عندما يحيد أهلها عن دستور الحياة

إنسانية تقدم كل يوم قرباناً على مذبح العنصرية والتعصب والطغيان

إنسانية ما أحوجها اليوم أكثر من أي يوم آخر لظل يورف فوق جراحها ولنور يشع في ظلماء قلوب عمياء ختم الله عليها.

(*) طرابلس – لبنان. imanlegha@hotmail.com

حال ينفطر له الفؤاد وواقع يتخطى وصفه قدرة قلم أشعر الشعراء وما من سبيل للمقارعة سوى مناهضة الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق وليعرض كل منا ما لديه من صفوة الفكر ومحن التجربة علّها تكون ورقة من فنن يظلل بؤس البشرية اليوم.

واقع الحال

أفرزت الحربين العالميتين الأولى والثانية منطقة تقع فوق بركان تتأجج حممه، منطقة بلدانها مقسمة ومفتتة وفق أهواء المنتصر في تلك الحرب... وقد واكب هذه الحالة نهضة علمية تكنولوجية قفزت بالإنسانية أشواطاً إلى الأمام، وأضحت فيها المعلومة لا حدود لها وكشفت ثورة الاتصالات عن الهوة الشاسعة بين المنتصر والمنهزم، وظهرت حالة التفاوت الشديد بين سكان هذا الكوكب الذي لم يعد تخفى فيه خافية وبرز إلى العلن صراع حفي بين عالمين:

عالم حديث متطور مسيطر يمتلك كل مفاتيح القوة، تحكمه مدنية تسعى بكل ما أوتيت إلى فرض نفسها على كل من لامسها،

وعالم آخر غدا أشبه بتحفة أثرية لا يزال يتعلق بأهداب حضارة أو لنقل حضارات تضرب عمقاً في التاريخ قدماً، حكمت أحقاباً من الزمن ولا تزال قابعة في نفوس وعقول المؤمنين تحاول جاهدة المواجهة بمقاومة هزيلة في الظاهر، ضروس في الباطن، تسعى إلى إظهار زيف الزجاج التافه وترجيح الماس الثمين كما أحب بديع الزمان سعيد النورسي هذا التشبيه عند حديثه عن مرض العصر[1].

ولعل عبارة مرض العصر هي الأدق من بين جميع المحاولات التي حاولت توصيف الحالة.

وبعيداً عن أي عاطفة أو تعبير أدبي رقيق، مضت حتى الآن خمسون سنة على وفاة الأستاذ سعيد النورسي، خمسون سنة تحول العالم فيها إلى قرية صغيرة وكشف العلم النقاب عن العديد من الألغاز المرتبطة بالصحة والتاريخ والجغرافيا كما عرفت فيها البشرية أحداثاً مفصلية إن على صعيد السياسة أو الأمن أو التطور مما أحدث حالة من التفاعل أدت إلى تداخل المجتمعات تداخلاً فاق أي زمن كان.

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر استنبول ١٩٩٣، الملاحق صفحة ٢٠٠

خمسون سنة مضت ولم يعد بالإمكان الاختباء خلف الإصبع، وحالات التعصب الأعمى والعنصرية تنخر في كيان هذا الكوكب الذي تندلع فيه موجات الحروب والعنف والعدائية لتلتهم كل تطور وإيجابية قد تنشأ من رحم مدنية مقنعة ما تلبث أن تكشف عن حقيقتها: سيطرة التعصب والعنصرية والنظرة الدونية لكل من يخالف خطوطها العريضة منها والفرعية، وأوجدت حالةً حار العلماء في وصفها مما دفع بنظريات تكاد تصبح مسلمات لدى الكثيرين من معتنقي هذه المدنية السائدة وأهمها نظرية صراع الحضارات. هذه النظرية فرضت نفسها بقوة على سطح كوكب تتعدد فيه الثقافات وتكثر فيه النزعات العنصرية ويسود التعصب معتقدات العديد من التجمعات البشرية ويسود منطق المصالح والمنافع الخاصة. غير أن هذه الهمروجة التي تدعي الحضارة لم تستطع أن تمحو نوراً ازداد إشراقاً ووهجاً بعد مرور ما يزيد عن أربعة عشر قرناً، أدلى خلالها علماء أمة النور بدلوهم ، ونغرف في ورقتنا هذه من دلو بديع الزمان سعيد النورسي ونبحر معه في مركب رسائل النور نلتمس الرشد.

ورقتنا هذه هي قراءة متأنية لرسائل النور ندرس فيها انعكاسها على العالم المعاصر المتعدد الثقافات يؤكد فيها بديع الزمان على نبذ التعصب والعنصرية والقومية ويثبت أسس المحبة والعدل والتعاون في مجتمع متعدد الثقافات تظلله رحمة الإسلام.

يتناول البحث في مجمله ثلاث محاور :

المحور الأول : إقرار الأصل في الحياة التعدد بين الأمم

المحور الثاني : الخلل في دستور الحياة الضابط لهذه الأمم المتعددة المعاصرة وبروز مشاكل العنصرية والتعصب والقومية والعداء وسيطرة نظرية القوة

المحور الثالث: ماذا يقول لنا النورسي في كل ذلك ؟ في مقابل تقرير الخلل الحاصل يدفع النورسي التعصب بالتسامح و بالشفقة والإقناع لا الإكراه وبالعدل.

المحور الاول : الأصل في الحياة تعدد الأمم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٨- ١١٩).

وقال جل علاه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

هاتان الآيتان تقرران مما لا يدعو للشك إلى أن البشرية خليط من شعوب وقبائل لم يشأ ربك أن يجعلهم أمة واحدة وفي ذلك حقيقة رفيعة تخص الحياة الإنسانية بشقيها الاجتماعي والسياسي. ويحكمها دستور التعارف والتعاون[١]. فالإنسان كائن اجتماعي بفطرته السليمة.

في تفسير آية سورة الحجرات يقول سعيد النورسي: إي خلقناكم طوائف وقبائل وأمماً وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية لتتعارفوا فيما بينكم ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا فتتخاصموا.[٢]

وفي معرض تفسيره للآية نفسها في موقع آخر يقول النورسي: كما أن هناك روابط تربط الجندي بفصيله وفوجه ولوائه وفرقته في الجيش وله واجب ووظيفة في كل منهما، كذلك كل إنسان في المجتمع له روابط متسلسلة ووظائف مترابطة. فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف ولم تعين وتحدد لما كان هناك تعاون ولا تعارف.[٣]

أما عن المفاضلة بين إنسان وآخر فقد جعل ربك لها ميزاناً واحداً هو المفاضلة بالتقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (وقوله صلى الله عليه وسلم: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى[٤]). وما ذلك إلا تكاملاً مع حقيقة الإيمان بيوم القيامة، ومبدأ الثواب والعقاب الذي بدوره يستوجب التعدد والمغايرة والارتقاء في الأعمال والعبادات ومثل هذه الحالة يستحيل تحققها لو كان الناس أمة واحدة .

ففي معرض جوابه على سؤال مفترض: لم كانت الكائنات مغيُّرة مؤقتة تخرب ثم تصير يوم القيامة مؤبدة محكمة وثابتة؟ يقول النورسي: إن الحكمة والعناية الأزليتين لما اقتضتا التجربة والابتلاء، والنشوء والنماء في الاستعدادات وظهور القابليات، وظهور

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر استنبول ١٩٩٣، صفحة ٤١٣ بتصرف

(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٤١٣

(٣) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٣٤

(٤) حديث صحيح أخرجه احمد

الحقائق النسبية التي تصير في الآخرة حقائق حقيقية ووجود مراتب نسبية وحكم كثيرة لا تدركها العقول، جعل الصانع جل جلاله الطبائع مختلطة، والمضار ممزوجة بالمنافع، والشرور متداخلة بين الخير والمقابح مجتمعة مع المحاسن... لتصير الكائنات تابعة لقانون التبدل والتغير والتحول والتكامل [١].

وهكذا سن رب العزة قانوناً لهذه الحياة المختلطة الأجناس والأعراق والأعراف، المتعددة اللغات والثقافات، سن لها دستوراً هو الإسلام نقيض المدنية الحاضرة التي شدد بديع الزمان على أن الشريعة ترفض هذه المدينة. وذلك لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية [٢].

وبهذه الكلمات شكل النورسي الحد الفاصل بين دستورين في الحياة دستور: إيماني رباني وأخر مدني دنوي، وبما أن العالم الإسلامي في حالة تقهقر سياسي واجتماعي فقد أفسح المجال أمام دستور المدنية يسيطر على هذا الكوكب الذي غدا بفعل تقدم التكنولوجيا قرية صغيرة، فكان من ثمرات هذه الحالة إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية وسيطرة فلسفة الآنا وحلول منطق الأقوى على حساب الأخوة الإنسانية وستكون هذه الأسس هي مفتاح المحور الثاني في هذه الورقة.

المحور الثاني : الخلل في دستور الحياة الضابط لهذه الأمم المتعددة المعاصرة

ما قولكم في نظرة شاملة إلى واقع الأمة المهزومة وقد تخلت عن مكانتها الحضارية مفسحة المجال لمدنية سفيهة متمردة غدارة متوحشة.

هذه المدنية تخضع لحكمة الفلسفة التي ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية،

وتهدف إلى المنفعة في كل شيء،

وتتخذ الصراع دستوراً للحياة،

وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات،

أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى.

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، إشارات الاعجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، صفحة ١٩٤

(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٥٧

ومن المعلوم أن شأن القوة هو الاعتداء.... وشأن المنفعة هو التزاحم ، إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم ... وشأن الصراع هو النزاع والجدال .... وشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاعها غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى[١].

كما أن الفلسفة تحبذ أصلاً القوة، وتتخذها أساساً وقاعدة مقررة لنهجها حتى أن مبدأ "الحكم للغالب" دستور من دساتيرها وتأخذ بمبدأ " الحق في القوة " وقد أعجبت ضمناً بالظلم والعدوان وحثت الطغاة والظلمة والجبابرة العتاة حتى ساقتهم إلى دعوى الألوهية!!.[٢]

لأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منهما إلى سعادة مموهة زائفة وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علما أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.[٣]

من جهة أخرى، نرى أن من أهم حالات الخلل الناتجة عن غياب دستور الإيمان نمو الشعور القومي لدى الشخص، وهذا الشعور إما أن يكون إيجابياً أو سلبياً:

فالإيجابي ينتعش بنمو الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف،

أما السلبي فهو الذي ينشأ من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند والإسلام يرفض هذا الأخير ....[٤]

ومع تأكيده بأن القومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية وهي سبب للتعاون والتساند وتحقق قوة نافعة للمجتمع وتكون وسيلة لإسناد أكثر للاخوة الإسلامية[٥]، يشدد النورسي على أن القومية السلبية تستجلب مصطلح العنصرية المدمر الذي ما من دليل أبلغ من تاريخ أوربا على شدة أثره في البشرية، فقال: كذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية وأوغلوا فيها في هذا العصر نجم العداء التاريخي المليء

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ١٤٤
(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٦٤٣
(٣) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٥٧
(٤) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٣٥
(٥) رسائل النور، سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٤١٥

بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية[١].

ومن أبرز نتائج القومية السلبية العنصرية والتعصب فهما الدافعان الأساسيان للعنف واستخدام القوة والاعتداء على الآخر، والوصول إلى حالة التصادم. ولعل نظرية صدام الحضارات إنما هي في محلها ارتكازاً إلى هذه الفلسفة، حيث يسميها بديع الزمان النورسي بدستور الصراع الذي تقول به الفلسفة في الحياة الاجتماعية، علماً أن الصراع ناشئ فقط لدى بعض الظلمة والوحوش الكاسرة من جراء سوء استعمال فطرتهم، وقد أوغلت الفلسفة حتى اتخذت دستور الصراع هذا حاكماً مهيمناً على الموجودات كافة فقررت ببلاهة متناهية: " أن الحياة جدال وصراع".[٢]

المحور الثالث : ماذا يقول لنا النورسي في كل ذلك ؟

مقابل حكمة الفلسفة التي تخضع لها المدنية الحديثة يقرر النورسي أن الإسلام إنما يخضع لحكمة القرآن الكريم، فهي تقبل الحق نقطة إستناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة ... وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من المنفعة .... وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة بدلاً من دستور الصراع... وتلتزم برابطة الدين والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية ..... وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.

إن شأن الحق هو الاتفاق وشأن الفضيلة هو التساند وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل للآخر وشأن الدين هو الاخوة والتكاتف وشأن لجم النفس، كبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو سعادة الدارين.[٣]

نموذج نقيض لا تلاقي فيه بين حكمة فانية لم تجر على البشرية إلا الويلات وحكمة ليت أهلها ينتبهون لها لوفرت عليهم الكثير من الويلات. فالإسلام دين السلام والأمان، يرفض النزاع والخصام في الداخل[٤].

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٤١٤

(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٦٤٤

(٣) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ١٤٥

(٤) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٨٦٣

ثم وبكل وضوح وفي معرض حديثه عن حال الأمة والعدو المسبب لهذا التردي يقول النورسي:

"إن أعداءنا ليسوا الأجانب، إنما الذي أرادنا إلى هذا الوضع وحال بيننا وبين إعلاء كلمة الله هو مخالفتنا للشريعة الغراء نتيجة جهلنا بها والضرورة التي أثمرت سوء الأخلاق وسوء المعاملات والاختلاف الذي أنتج الأغراض الشخصية والنفاق ..... ورغم جهل الأجانب بالإسلام في القرون الوسطى ورغم اضطرار الإسلام إلى معاداة الجهل والهمجية - إلا أنه حافظ على العدالة والاستقامة معهم ، فلم ير في التاريخ الإسلامي أمثال محاكم التفتيش .... إن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه وبإظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء فهما تجاه وحشية الهمجيين." [١].

أي حضارة أعظم وأرقى من هذا وأي تعبير أوضح من هذا التعبير، فلا تزال جرائم محاكم التفتيش في أوروبا وصمة عار يندي لها الجبين.

وأنّى لدعاة السلام الذين يلوكون عبارات لا طعم لها مما قاله النورسي وهو ينفر تلاميذ النور في كل زمان ومكان من العداء فيقول:

" إن الإخلاص واسطة الخلاص ووسيلة النجاة من العذاب، فالعداء والعناد يزعزعان حياة المؤمن المعنوية فتتأذى سلامة عبوديته لله، إذ يضيع الإخلاص! ذلك لأن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه.... لا يوفق إلى العدالة ... وهكذا يضيع أساسان مهمان لبناء البر " الإخلاص والعدالة" بالخصام والعداء."[٢]، وفي موقع آخر يقول : إن الود والمحبة والأخوة هي من طباع الإسلام وروابطه. والذي يحمل في قلبه العداء فهو أشبه ما يكون بالطفل فاسد المزاج يروم البكاء بأدنى مبرر للبكاء"[٣].

وفي ذروة تألقه وتميزه يتحدث النورسي عن أهم عامل فاعل في سبيل تحقيق الحكمة القرآنية الهادفة إلى صيانة تعددية الأمم والثقافات وحفظ حقوق الإنسان والجماعات، يقول:

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام- الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٥٣٥

(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٥٠

(٣) رسائل النور، سعيد النورسي، صيقل الإسلام ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٥١٠

إن سياسة المدنية الحاضرة تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها..

أما عدالة القرآن الكريم، فلا تضحي بحياة برئ واحد ، ولا تهدر دمه لأي شيء كان ولا في سبيل الأكثرية ولا لأجل البشرية قاطبة. إذ الآية الكريمة ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢) تضع سرين عظيمين أمام نظر الإنسان:

الأول : العدالة المحضة ، ذلك الدستور العظيم ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة.

والسر الثاني: هو لو قتل مغرورٌ بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه وإشباعه لنزواته وهوى رغباته، فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع."[١]

كلمة أخيرة

في غمرة هذه النظريات وتلك الحجج، وفي خضم هذا البحر اللجيّ من الأحداث المتلاحقة، يزودنا بديع الزمان بترياق ناجع لو طبقه كل واحد منا على نفسه لارتدى درعاً واقية له من زيف هذه المدنية ولكان له نور أمل يزيح طغمة اليأس عن القلوب.

يقول: "كل يوم جديد هو باب ينفتح لعالم جديد - لك ولغيرك - ... وإن لكل منا عالمه الخاص... وإن نوعيته تتبع عملنا وقلبنا، مثله في ذلك مثل المرآة تظهر فيها الصورة تبعاً للونها ونوعيتها، فإن كان مسودة فستظهر الصورة مسودة، وإن كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة .... كذلك أنت ، فبقلبك وبعقلك وبعملك يمكنك أن تغير صورة عالمك باختيارك وطوع إرادتك يمكنك أن تجعل ذلك العالم يشهد لك أو عليك."[٢].

دعوة للتغيير والاندماج واحترام الآخر، ما قرأت أبلغ منها معنى ولا أبعد منها هدفاً.....

---

(١) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٨٦٢

(٢) رسائل النور، سعيد النورسي، الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي، صفحة ٣٠٢

المراجع

رسائل النور، سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣